

## الإبدال والاشتقاق

الإبدال جعل حرف مكان حرف. وإذا كان المتغير حرف علة سُمي اعلالا. أو هو بصيغة أخرى: إبدال حرف صحيح بحرف صحيح، أو حرف علة بحرف صحيح. أما الإعلال فهو تغيير يطرأ على أحد حروف العلة الثلاثة، وهي الواو والياء والألف، وما يلحق بها (ونقصد الهمزة)، بحيث يؤدي هذا التغيير إلى حذف الحرف أو قلبه (إلى حرف علة آخر) أو تسكينه.

ولا يهمننا في درس الاشتقاق الإبدال غير الوظيفي، أي ما لم يتغير فيه معنى الكلمة بإبدال صوت فيها بصوت آخر. يهمننا ههنا الحصول على كلمة جديدة نتيجة الإبدال. وهذا من صميم درس الاشتقاق. بصيغة أخرى:

✚ الإبدال الصوتي: غرضه اليسر والتخفيف والتسهيل.

✚ الإبدال المعنوي: يؤدي إلى الحصول على كلمة مغايرة، بإبدال حرف واحد.

ولقد أدرك علماءنا الأوائل ما للفونيمات من دور أساسي في تحديد دلالة الكلمات، ناهيك عن أن إبدال الصوامت ينتج عنه تغير في الدلالات. وهذا ابن جني، وإن لم يشر إلى ذلك بصريح العبارة، إلا أن في كلامه ما يوحي بذلك. يقول في كتابه الخصائص: (فأما مقابلة الألفاظ بما يشاكل أصواتها من الأحداث فباب عظيم واسع، ونهج ملتئب عند عارفيه مأوموم، وذلك أنهم كثيرا ما يجعلون أصوات الحروف على سمت الأحداث المعبر بها عنها، فيعدّلونها ويحتدون عليها، وذلك أكثر مما نقدره، وأضعاف ما نستشعره. من ذلك قولهم: خضم وقضم. فالخضم لأكل الرطب، كالبطيخ والقثاء، وما كان نحوهما من المأكول الرطب. والقضم للصلب اليابس، نحو قضمت الدابة شعيرها ونحو ذلك... فاختاروا الخاء لرخاوتها للرطب، والقاف لصلابتها لليابس حدوا لمسموع الأصوات على محسوس الأحداث. ومن ذلك قولهم: النضح للماء ونحوه، والنضح أقوى من النضخ. قال الله سبحانه: "فيهما عينان نضّاختان". فجعلوا الخاء لرقتها للماء الضعيف، والخاء لغلظها لما هو أقوى منه). [الخصائص، 157/2، 158]

إذن، لقد أدرك ابن جني بحسه المرهف أنّ الفونيمات تلعب دوراً هاماً في الدلالة، وأنّ الإبدال الذي يحصل بينها يولّد دلالة جديدة. ونلاحظ ذلك في خضم وقضم، ونضح ونضخ. فالحاء في المثال الأول تدل على الرخاوة، وبالتالي جاء الفعل خضم للدلالة على أكل الرطب، والقف تدل على الشدة، ومن ثم جاء الفعل قضم للدلالة على أكل اليبس. الشيء نفسه ينسحب على المثال الثاني، فالحاء لرقها جعلت من الفعل نضح يدل على تسرب الماء في تأنّ وبطاء، والحاء لغلظها جعلت من الفعل نضح يدل على فوران السائل في قوة وعنف.

ويعزز ابن جني رأيه هذا بقوله: (ومن ذلك القد طولاً، والقط عرضاً. وذلك أنّ الطاء أحصر للصوت، وأسرع قطعاً له من الدال، فجعلوا الطاء المناجزة لقطع العرض، لقربه وسرعته، والدال المماثلة لما طال من الأثر، وهو قطعه طولاً).

ومن ذلك أيضاً قوله في "المحتسب": (القبض بالضاد معجمة باليد كلها، وبالصاد غير معجمة بأطراف الأصابع... وذلك أنّ الضاد لتفشيها واستطالة مخرجها عبارة عن الأكثر، والصاد لصفائها وانحصار مخرجها وضيق محلها جعلت عبارة عن الأقل).

كما نظر ابن جني في الصوائت (الحركات)، ووجد أنها تلعب هي الأخرى الدور نفسه الذي تلعبه الصوامت، وأنّ إبدال الصوائت يؤدي دلالات مختلفة، فمن ذلك قوله: (الذّل في الدابة ضد الصعوبة، والذّل للإنسان وهو ضد العز، وكأنهم اختاروا للفصل بينهما الضمة للإنسان، والكسرة للدابة، لأن ما يلحق الإنسان أكبر قدراً مما يلحق الدابة...).

وبنظرته الفاحصة هذه يكون ابن جني قد حاز على شرف سبق إلى مثل هذا التحليل، متقدماً بذلك على جميع علماء اللغة المحدثين، فهذا الفيلسوف الهولندي "بوص" يذهب إلى ما ذهب إليه ابن جني بخصوص القيمة الدلالية للصوت (الفونيم). فهو يرى أنّ الفونيم يوحي بدلالة الكلمة، كما توحى الكلمة بدلالة الجملة.

كما نجد أنّ نظرة ابن جني قد سبقت نظرة اللغوي الإنجليزي الشهير "فيرث" الذي تحدث عمّا أسماه الوظيفة الفوناستيتيكية للأصوات Phonaesthetic fonction ويعني بذلك تلك العلاقة القائمة بين الكلمات التي تبدأ بحرفين St وSn وSl، إذ تنتمي كل مجموعة منها إلى معنى عام. وهي النظرة نفسها التي رأيناها عند ابن جني حين قال: (واستعملوا تركيب (ج ب ل) و (ج ب ن) و (ج ب ر)

لتقاربها في موضع واحد، وهو الالتئام والتماسك. منه الجبل لشدته وقوته، وجَبَنَّ إذا استمسك وتوقف وتَجَمَّعَ، ومنه جبرت العظم ونحوه أي قوّيته).

ففي هذه الأمثلة حصل إبدال بين حروف اللام والنون والراء، مع الاحتفاظ بالجذر (ج ب). وفي كل هذه الأحوال تنتج دلالات جديدة كلما أبدل صائت بصامت، أو صامت بصامت. ومن علماء العربية الذين أدركوا هذه الظاهرة الصوتية العالم اللغوي "ابن فارس" في معجمه "مقاييس اللغة"، فهو يورد جملة من الكلمات التي حصل فيها مثل هذا الإبدال بين الصوامت، فأدى كل صامت دلالة تختلف عن الدلالة التي أداها صامت آخر. ومن هذه الأمثلة:

- فر: الفاء والراء يدلان على معانٍ ثلاث. الأول: الانكشاف، في قولهم: فرَّ عن أسنانه، إذا تبسّم (أي كشف عنها). والثاني: جنس من الحيوان، في مثل: الفريز، وهو ولد البقرة. والثالث: الخفة والطيش، يقال: رجل فرفار، بمعنى طائش.

- فر: يدل على الخفة.

- فش: يدل على الانتشار وقلة التماسك.

- فض: يدل على التفرقة والتجزئة.

- فظ: يدل على الكراهة

- فغ: يدل على محاكاة الصوت. ومنه: الفغغغة (اسم صوت الغنم عند الحوار)

ولقد أورد ابن فارس في مقاييسه جملة من الألفاظ الأخرى التي تتكون من مادة واحدة، وهي الفاء والراء (ف. ر) وفونيم ثالث يغير معنى هذه المادة كلما حصل إبدال. ومن هذه الألفاظ:

فرز-فرس-فرش-فرض-فرض-فرع-فرق-فرك-فرم-فره-فري-فرت-فرث-فرح-فرخ-فرد.  
وكذلك مادة (ق. ط) مع فونيم ثالث، في مثل: قطع-قطف-قتل-قطم-قطن-قطو-قطب..

ومن العلماء الذين تحدثوا عن هذه الظاهرة كذلك "ابن دريد" و"الثعالبي" و"الفارابي". وقد أورد السيوطي في "المزهر" كما كبيرا من الألفاظ التي أتى بها هؤلاء، وكلها تدور في فلك الإبدال، وما تلعبه الفونيمات المبدلة من أدوار في تغيير دلالات الكلمات، ومن هذه الألفاظ:

- العطعطة: تتابع الأصوات في الحرب وغيرها.

- الغطغطة: صوت غليان القدر وما أشبهه (أمواج البحر العالية، صوت المختق أو المذبوح)

- الجمجمة: أن يخفي الرجل في صدره شيئاً ولا يديه.
- المحممة: أن يردد الفرس صوته ولا يصهل.
- الدحاح: الرجل القصير.
- الرحاح: الإناء القصير الواسع.
- الجفجفة: هزيز الموكب وحفيفه في السير.
- الحفحفة: حفيف جناحي الطائر.
- الجرجرة: صوت جرع الماء في جوف الشارب.
- الخرخرة: صوت تردد النفس في الصدر.
- الكهكهة: صوت ترديد البعير هديره.
- القهقهة: حكاية استغراب الضحك.
- الوعوعة: صوت نباح الكلب إذا رددّه.
- الوقوقة: اختلاط أصوات الطير.
- الوكولة: هدير الحمام.
- الجُف: وعاء الطلعة إذا جف (الغشاء الذي يغطي قرة النخل قبل أن تخرج)
- الخُف: الملبوس.

ومن ذلك أيضا:

- النقش في الحائط
- الرقش في القرطاس (الصحيفة)
- الوشم في اليد
- الوسم في الجلد
- الضرب على مقدم الرأس: صقع
- وعلى القفا: صفع
- وعلى الخد يبسط الكف: لطم
- وبقبض الكف: لكم

- وبكلتا اليدين: لدم
- وعلى الجنب بالأصبع: ونز
- وعلى الصدر والجنب: وكز ولكز
- وعلى الحنك والذقن: وهز ولهز

ويقال:

- حذفه بالحصى
- حذفه بالعصا
- قذفه بالحجر

ومنه أيضا:

- إذا أخرج المريض صوتا رقيقا فهو: الرنين.
- فإذا اخفاه فهو: الهنين.
- فإذا أظهره نخرج خافيا فهو: الحنين.
- فإذا زاد فيه فهو: الأنين.
- فإذا زاد في رفعه فهو: الخنين.

ولقد كان لعلماء اللغة العرب المحدثين آراء متناقضة بخصوص هذه القضية، فلقد انطلقوا من فكرة "المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها"، وحصروا أنفسهم داخل هذه النظرية، لينتهوا إلى إنكار هذه المناسبة الطبيعية جملة وتفصيلا، أو الإقرار بها عن اقتناع كامل.

ولعل السيوطي هو الذي صرح بفكرة المناسبة هذه، وذلك عندما علق على الألفاظ التي أوردها في مزهره في باب "مناسبة الألفاظ للمعاني" قائلا: (فانظر إلى بديع مناسبة الألفاظ لمعانيها، وكيف فاوتت العرب هذه الألفاظ المقترنة المتقاربة في المعاني، فجعلت الحرف الأضعف والألين والأخفى والأسهل والأهمس لما هو أدنى وأقل وأخف عملا أو صوتا، وجعلت الحرف الأقوى والأشد والأظهر والأجهر لما هو أقوى عملا وأعظم حسا..).

فالسبب - والحال هذه - هو من صرح بفكرة المناسبة، وذلك بعدما جمع مادته من مؤلفات سابقه كسيبويه وابن جني والثعالبي وابن دريد. ثم تبعه علماء عرب محدثون، إلى أن انتهى أحدهم - وهو الدكتور إبراهيم أنيس - إلى وصف ما قاله ابن جني والثعالبي بتخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة! يقول: (وهكذا نرى أن ابن جني كان ممن يؤمنون إيمانا قويا بوجود الرابطة العقلية المنطقية بين الأصوات والمدلولات، أو ما يسميه بعض المحدثين بالرمزية الصوتية، بل لقد غالى ابن جني في هذا ومعه الثعالبي صاحب فقه اللغة، إذ جعل مجرد الاشتراك في أصلين فقط من الأصول الثلاثة دليلا على الاشتراك في معنى عام لبعض الكلمات، فيقرر أن المعنى العام للفرقة يكون بين صوتي الفاء والراء، والمعنى العام للقطع يكون بالقاف والطاء، إلى غير ذلك من تخيلات وتأملات تشبه أحلام اليقظة عند رجل اشتدّ ولعه باللغة العربية فتصور فيها ما ليس فيها، وأضفى عليها من مظاهر السحر ما لا يصحّ في الأذهان، ولا تصف به لغة من لغات البشر). (إبراهيم أنيس، من أسرار اللغة، ص 126)

ويستمر الدكتور إبراهيم أنيس في إصراره على أن هؤلاء العلماء قد اشتدّ ولعهم بالبحث في المناسبة الطبيعية بين الألفاظ ومعانيها، لينتهي إلى إنكار هذه القضية جملة وتفصيلا.

والواقع أن ما ذهب إليه الدكتور أنيس ليس بدعا في الدرس اللغوي الحديث، بل سبقه إلى ذلك علماء غربيون لهم قدرهم في مجال البحث اللغوي، فهذا دي سوسير رائد علم اللغة الحديث يتحدث عما يسمى باعتبارية العلامة اللغوية *L'arbitraire du signe linguistique*، ويذهب إلى إن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتبارية، ويضرب مثلا بكلمة *Soeur*، إذ لا رابطة بين فونيماتها وبين مدلولها، بل إنه يمكننا التعبير عن هذا المدلول بأي ثابع فونيمي آخر، هذا بالإضافة إلى أن جميع لغات العالم تستعمل في التعبير عن هذا المفهوم كلمات تختلف اختلافا جذريا.

وإذا كان الدكتور إبراهيم أنيس رافضا للمناسبة الطبيعية فإنّ محمد المبارك من الذي ناصر هذه القضية، ولقد خصص في كتابه "فقه اللغة وخصائص العربية" مبحثين نصّ فيهما على القيمة التعبيرية للحرف الواحد في اللغة العربية، والوظيفة البيانية والقيمة التعبيرية للحروف في اللغة العربية.

ومثل هذه القناعة نجدها عند العالم اللغوي "يسبرسن"، الذي يهب إلى أن مثل هذه العلاقة ليست مطردة في جميع كلمات اللغة، وأن الكثير من هذه الكلمات التي تمثل فيها هذه الظاهرة تزول منها مع الزمن، وأن كلمات أخرى تكتسب هذه السمة ثم تزول منها... وهكذا.

والحقيقة أن ما ذهب إليه علماء العربية لا يعني المناسبة الطبيعية فحسب، لأن هذه الظاهرة ليست مطردة بالشكل الذي يجعلنا نجزم بأنهم مولعون بها، إنما هم يتحدثون عن نظرية الفونيم بمفهومها الحديث، وهي أصغر وحدة صوتية عن طريقها يمكن التفريق بين المعاني. فكثير من كلمات اللغة تتحد من حيث مكوناتها، وتختلف في وحدة صوتية صغرى فيتغير بموجبها معنى هذه الكلمات.

فابن جني مثلاً - كما أوضحنا ذلك من قبل - يتحدث عن مراحل في نظرية الفونيم ما تزال غامضة في علم اللغة الحديث. إنه يركز على الثنائيات الصوتية التي تختلف من ناحية المخرج أو الصفات، ويرى أن تقارب المعنى للكلمتين يكون نتيجة تقارب الصوتين، ولكن هذا لا يعني أن الكلمتين تجملان معنى واحداً، بل إن لكل كلمة معنى مخالفاً، ونلاحظ ذلك في مثل: الخضم والقضم، الأز والهز، العسف والأسف..

أما مسألة محاكاة أصوات الطبيعة أو ما يسمى بالأنوماتوبيا Onomatopée وعلاقتها بمناسبة اللفظ للمعنى، فتلك قضية خاصة بنشأة اللغة الإنسانية، وقد كان لعلماء العربية القدامى كما لعلماء اللغة المحدثين آراء ونظريات خاصة بهذا المجال.